

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 8

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة لقمان

التاريخ: 2021\ م

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

لا زال الكلام في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

المحطة السادسة: وهو ماذا يراد من وصف الكتاب بالحكيم؟

هناك آيات متعددة وردت فيها كلمة الحكيم بالالف واللام في القرآن الكريم، وتصل إلى اثنين وأربعين مورداً، أكثر هذه الموارد جاءت وصفاً لذات الباري تبارك وتعالى، يعني المتصف بأنه حكيم هو الله، وأكثرها مع العزيز ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. نعم، يوجد ثلاث أو أربعة موارد جاء الحكيم وصفاً للقرآن أو ما يقوم مقامه، الكتاب، الذكر، الذكر الحكيم، أو الكتاب الحكيم، في موارد معدودة جداً في القرآن الكريم، مثلاً: في سورة يس ﴿يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾¹ الحكيم وصف للقرآن، فيما نحن فيه، في سورة لقمان وفي سورة يونس، جاء الكتاب ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ في آية أخرى ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ في هذه الموارد الأربعة لم يأت الحكيم وصفاً لذاته تبارك وتعالى، وحينئذ ما يذكر في واحد من هذه الموارد الأربعة يذكر في البقية، وتصلح بعضها قرينة على ما يراد من البعض الآخر.

يوجد مجموعة من الوجوه، وفي الواقع كل وجه من هذه الوجوه لها قائل:

الوجه الأول: أن المقصود من ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، أي: الكتاب الذي استقرت به الحكمة، فإن الحكيم فعيل بمعنى ذو حكمة، فأيات الكتاب حكيمة صائبة بمقتضى المنطق والعقل ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة، فوصف الكتاب بالحكمة لاشتماله على الحكمة، فإن آيات القرآن الكريم كلها صائبة وفي مكانها وفي معناها المناسب، والأمور موضوعة فيها في نصابها الصحيح.

وهذا الوجه اختاره جماعة منهم العلامة الطبطبائي².

الوجه الثاني: أن يقال صحيح هذه صفة للكتاب، للآيات وللکلام، لكن بلحاظ المتكلم، فتصف الکلام بالحكمة بلحاظ أن المتكلم هو الحكيم، وهذا أمر متعارف عند العرب، مثلاً: الأعشى³ في قصيدة له يقول:

وَعَرِيَّةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا⁴

وغريبة يعني قصيدة غريبة، فوصف هذه القصيدة الغريبة بأنها حكيمة بلحاظ أنه هو القائل، فوصف الکلام بالحكمة باعتبار قائله.

الوجه الثالث: ولعله عليه أكثر مفسري العامة، أن الحكيم بمعنى الحاكم، فعيل يأتي على معنى اسم الفاعل، حكيم يعني حاكم، والدليل على ذلك في سورة البقرة: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾⁵ هذا الکتاب وصف بأنه بآياته وبمضمونه الحق يحكم به بين الناس، فالكتاب حكيم بمعنى أنه حاكم بين الناس، ففي الأمور الاعتقادية الکتاب هو الفيصل والفرقان، وهو الذي يميز الحق من الباطل، في الأفعال يميز الصواب من الخطأ، فهو حاكم بأن النبي الذي جاء به صادق في دعوى النبوة؛ لأنه معجزة كبرى، فيحكم بصدقه، وما شابه ذلك من الأمور التي يحكم بها القرآن الكريم.

الوجه الرابع: الحكيم فعيل لا بمعنى فاعل، بل بمعنى مفعول، مثل جريح بمعنى مجروح، كما أن فعيل يأتي بمعنى فاعل، يأتي بمعنى مفعول، حينئذ معنى الکتاب الحكيم هو المحكم، آياته محكمة ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾⁶ فهو آياته متلائمة، خالية عن الفساد، لا يوجد فيها تهافت وتناقض،

² الميزان في تفسير القرآن، ج 10، ص: 8. والمراد بالكتاب الحكيم هو الکتاب الذي استقرت فيه الحكمة، وربما قيل: إن الحكيم من الفعيل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل للانثلام والفساد، والكتاب الذي هذا شأنه- وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي- هو القرآن المنزل على النبي ص.

وربما قيل: إن الکتاب الحكيم هو اللوح المحفوظ، وكون الآيات آياته هو أنها نزلت منه وهي محفوظة فيه، وهو وإن لم يخل عن وجه بالنظر إلى أمثال قوله تعالى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ»: البروج: - 22 وقوله: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ»: الواقعة- 78 لكن الأظهر من الآية التي نحن فيها وسائر ما في سياقها من آيات أوائل هذه السور المفتحة بالحروف «الر» وسائر الآيات المشابهة لها أو النازلة إلى وصف القرآن أن المراد بالكتاب وبآياته هو هذا القرآن المتلو المقرء وآياته المتلوة المقرءة بما أنه من اللوح المحفوظ من التغيير والبطلان كالكتاب المأخوذ بوجه من الکتاب كما يستفاد من مثل قوله تعالى: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ»: الحجر- 1، وقوله: «كِتَابٌ أَخْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ»: هود: - 1، وغير ذلك.

³ ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقة. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كل مسلك، وليس أحد ممن عرف قبله أكثر شعراً منه. وكان يغني بشعره، فسمي (صنّاجة العرب).

⁴ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ج 1 ص 178

⁵ البقرة 213

⁶ آل عمران 7

هذا معنى إحكام الآيات، لا بمعنى الذي ذكره الفخر الرازي أن المحكم بمعنى أنه لا يضر به الماء، لا نتكلم عن المصحف الورق، نحن نتكلم عن القرآن، القرآن شيء والمصحف شيء آخر، قد يمزق الكتاب، قد يحرق المصحف، ليس هذا المقصود من المحكم، المحكم يعني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا يوجد تناقض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾⁷ هذا المقصود بالإحكام وبالمحكم.

ربما يشهد لهذا المعنى الرابع قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾⁸ وسوف نرجع إليها عندما نختار الرأي الصحيح بعد قليل.

الوجه الخامس: ما ذهب إليه الحسن البصري، أن الكتاب حكيم؛ لأنه تبارك وتعالى حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، يعني حكيم أي فيه أحكام؛ لأن آيات القرآن الكريم هي عبارة عن دساتير وأحكام، فوصف الكتاب بالحكيم، أي: مشتمل على الأحكام.

الصحيح من بين هذه الوجوه يتضح بعد تقديم مقدمة، لا شك ولا ريب مع قطع النظر عن الآية، أن الباري تبارك وتعالى من صفاته ومن خصائصه ومن أسمائه أنه حكيم، وهو الذي يؤتي الحكمة، هو منبع الحكمة، هذا مما لا إشكال فيه، فمن كان حكيماً بما للكلمة من معنى، وفي أعلى درجة من درجات التكامل في الحكمة، الذي لا يتصور بعدها درجة، أي: حكيم بلا حد، هذا يستحيل أن ينفك كلامه وأفعاله عن كونها حكيمة. نعم، تقول أنت حكيم، لكن حكمتي ليس لا حد لها، على الرغم من أن الإنسان يتصل في إجمال أفعاله وأقواله بالحكمة، لكن في بعض الأحيان يصدر منه فعل أو قول يتنافى مع الحكمة، فنحن إذا كنا نتكلم عن الكتاب المنزل من عند الحكيم المطلق الذي لا حد لحكمته، فإذاً هناك ملازمة بين أن يكون الباري حكيماً وبين أن يكون كتابه وأقواله وأفعاله أيضاً متصفة بالحكمة، فهذه الخصوصية في الواقع هناك تبادل، فسواء أرجعنا الحكمة في الآية الشريف إلى الكلام بلحاظ متكلمه أو إلى ذات الكلام، الأمر صحيح، وإذا توقفنا عند قوله تبارك وتعالى في

سورة فصلت ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾⁹ لماذا لا يأتيه الباطل؟ هو يذكر العلة؛ لأن آياته محكمة، آياته مصيبة، آياته على وفق الحق والصواب، لكونه ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ إذن هناك تفاعل بين الأمرين.

فإذن نحن نرى أن قوله تبارك وتعالى: ﴿الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ الحكيم تؤخذ بحسب ظاهرها من الحكمة، وآيات القرآن حكيمة، متصفة بالصواب والحقانية؛ لأنها منزلة من لدن حكيم خبير، من لدن حكيم حميد، وما شئت فعبّر.

فعلى هذا الأساس، هذه الآية حقيقة تتصف بالحكمة، ومنزلها حقيقة يتصف بالحكمة.

أما أن نحمل الحكيم على الأحكام، هذا خلاف الظاهر جداً، فأضعف الأقوال ما ذهب إليه الحسن، ما ذهب إليه الحسن ليس بحسن.

والصحيح إذن أن وصف الكتاب بلحاظ آياته بالحكمة صحيح، كما أن وصفها بلحاظ منزلها بالحكمة أيضاً صحيح.

والنتيجة النهائية والإجمالية لهاتين الآيتين الكريمتين: أن الله سبحانه وتعالى في بداية بعض سوره في مقام نفي الريب والتشكيك وإثبات إعجاز الكتاب والقرآن، قدم حروفاً مقطعة تعتبر رموزاً ومفاتيح لأصحابها المعصومين عليهم أفضل الصلاة والسلام، ليكونوا من خلالها يهتدون إلى تبيانية القرآن الكريم لكل شيء؛ لأنهم هم من لديهم مفتاح الطهارة، والقرآن الموجود في كتاب مكنون يحتاج إلى هذا المفتاح؛ لينفتح من كل آية معان وبطون لا حصر لها، يعرفون من خلالها ما كان وما يكون إلى آخر هذه الدنيا، إلا ما اختص الله تبارك وتعالى نفسه بجلاله به. وهذا القرآن الكريم آياته موجودة في كتاب يتصف بالحكمة، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾¹⁰ ولا يحصل فيه التناقض والاختلاف؛ لأنه نزل من عند حكيم مطلق.

⁹ فصلت 42

¹⁰ فصلت 42